

البيت الكبير

واستأذنَ العمرُ أو إن شئتَ قد نَفَدا
وصرْتُ أسألُ: هل يأتي عليّ غدا؟
آنَ الآوانُ لننقُصَ بيتنا هَدَدا
به كما عشتُ عمراً رائعاً رغدا؟
أحلى السنين ولم أخبرُ بها أحدا
طفولتي وصباي الغُصُ واتقدا
بالفوزِ في العلمِ والتحصيلِ مُجتهدا
في ذلك الدربِ حتى ينفعوا البلدا
ثرَ الفؤادِ فلم أعرفُ به كَمَدا
ما غبتُ عنه، ولا في مرّةٍ شَرِدا
نُفري الضيوفَ بها من حلّ أو وَفَدا
بيتُ الكِرامِ فقد عهدوا به الرِّشَدا
فيها العلومُ وأصلُ الدينِ قد رُصدا
قراءتهُ كلُّهُ فازددتُ منه هُدى
و(عمدةُ الفقيه) والتفسيرُ مُعتمدا
أما المَجَلَّاتِ لم أتركُ بها عَدَدا
أعدادُ (مُقْتَنَفٍ) قد جُمِعتِ قِدا
مواهبُ الشعرِ والإبداعِ دون مدي
فكان يَحْفَلُ بالسَّمارِ مُحْتَشِدا
ظلالها وثمارُ أَيْنَعَتْ لُبَدا
فأشتَهِيه فأذني من جَناه يدا
قَبَلِ المعاولِ قولاً فيه مُقْتَصِدا

مرّت ليالٍ ولا أُحصي لها عددا
واحدُودَبَ الظهرُ وانهارتُ مقاومتي
فصاح بي صائحُ من إخوتي نَهَمٌ:
صرختُ: ما البيتُ؟ من قد عاش مُرتَبِطاً
عشرون عاما من الأحلامِ أحسبها
ولدتُ فيه وشبّتُ في جوانبه
وعشتُ أجملَ أفراحي وأبهجها
ومُرشدًا إخوتي في سعيهم دَبِياً
أقوم في الفجرِ كالعصفورِ مشرحا
أجري إلى الدرسِ أبغي فيه معرفةً
إن أنسَ لم أنسَ في الحجراتِ (منظرةً)
فسادةُ الفكرِ والقراءِ مقصدهم
وفي جوانبه ألفتُ مكتبةً
تراثُ جدِّي وأبائِ له ذهبوا
متنُ (البخاري) مع (الإحياء) مكتملاً
والشُّعْرُ منه الدواوينُ التي بقيتُ
من (أزهرٍ) (للواء) و(الهلal) كذا
في نورها قد تَسامى العقلُ وانطلقتُ
أما (الحظيرُ) وليلُ الصيفِ خيمتهُ
وكانت التوتةُ الفيحاءُ وارفَةً
أرنبو لأغصانها بالتوتِ قد مُلئتُ
يا هادمي البيتِ هل لي أن أقولَ لكم

قد كان هذا الذي لا تعرفون له
بيت الصّلاتِ وفيه البرُّ مشتهرٌ
ومصدرَ الماءِ للجيرانِ أجمعهم
وصاحبَ الرأيِ والقولِ الأخيرِ له
كم أسرةٍ بل وكم جيلٍ به سكنوا

يا قومٍ إن شئتُم أن تهدموا بيتي
كنزٍ (يقال) ولكني أقولُ: به
تلكَ الحياةُ وهذي سنَةٌ كُتِبَتْ
يا قومٍ لا تحسبوا دمعي على طللٍ
بكي الضليلُ لرسمِ دارسٍ وبكى

حقًا، أعزَّ بيوتِ الحيِّ مُذُ وُجِدا
بل والتداوي وعقدُ الصلحِ إن وَرِدا
وراعيَ الذكِرِ في (الدوّارِ) مُنفردا
ففيه صفةٌ هذا الحيِّ مُعتقدا
حتى أتينا فكنا الأهلَ والولدا

فلتبحثوا عن تراثٍ فيه مُفتقدا
تاريخُ عائلةٍ قد فُرقتُ بدّدا
على الخلائقِ، لكن هل تضيعُ سُدَى؟
بِدعًا من الشّعْرِ أو طلالِ همي وندى
ليدُ وابنُ أبي سُلمي وقد رَشِدا